فقه التواصل في الخطاب الديني النبوي
حقيقته وأسراره

ليلى جودي: أستاذة محاضرة "أ"
كلية الآداب، جامعة الجزائر 2

تكملة للمقال المنشور في العدد28- **الجزء الأول**

لم تتلق النفس الإنسانية الخطاب الديني، وهي مجرد جسد بمعزل عن الروح، ولا بوصفها عقلا من دون مشاعر، وإنّما بوصفها كلا مكتملا لا يمكن فصم عراه، فلا الروح تستطيع أن تحلّ محل الجسد، ولا العقل يستطيع أن يستغني عن المشاعر. وقد وجد المخاطَب المستروح نفسه مسوقا إلى هذا النوع من الخطاب، راغبا في الاستماع والإنصات، فتشدّه الكلمات والمعاني شدّا وكأنّما شيء ما يدعوه إلى تلقيه لتعانق روحُه سرا خفيا، لا يستمل مع كثرة الرد، بناء على أنّ هذا النوع من المخاطَب يبحث عن راحة لنفسه وصفاء لقلبه وأنس في خلوته، ولأنّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وإنّ الذكر جلاؤها، كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكذلك «النفس تملّ، كما أنّ البدن يَكِلُّ؛ وكما أنّ البدن إذا كلَّ طلب الراحة، كذلك النفس إذا ملّت طلبت الرَّوح»،[34] وراحت تنشده في الجمال الذي يتوارى فيه حب التواصل مع الله، لتجد متعة متجددة يستحيل ضبطها؛ ذلك أنّ النفس تقبل ما يشاكلها ويوائمها، ولهذا فهي تزداد سموا وطيبة كلما كانت أصفى وأنقى، وتزداد انحدارا واضمحلالا كلما كانت مكدرة خبيثة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**يا أيها الناس! توبوا إلى الله. فإني أتوب، في اليوم، إليه مائة مرة**". عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال: "**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن. فهو يقوم به أناء الليل. وآناء النهار. ورجل آتاه الله مالا. فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**".

إنّ المخاطَب بوصفه قارئا أو سامعا أو متلقيا أو مخاطبا أو مرسلا إليه أو مقولا له... بحاجة إلى أن يعايش الخطاب الديني؛ لأنّه بعوز إلى أن يجعل حياته على فسحة من الجمال والسمو والروحانية، إنّه دوما يبحث عن مأوى يلوذ إليه لا في حالات انقباضه وأحزانه وإطباق الهموم عليه فقط، بل في ساعات الرخاء أيضا، أومن اتّسم بقلب لين منشرح غير قاس والحقّ أنّه يفرّ من هموم الدنيا إلى الله مطيعا لأوامره، راغبا في ذلك من تلقاء نفسه، في راحة لا أسمى ولا أصفى منها. فعن عبدالله بن مسعود قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**اقرأ علي القرآن**" قال: فقلت: يا رسول الله! أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: "**إني أشتهي أن أسمعه من غيري**" فقرأت النساء. حتى إذا بلغت: "**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا**" النساء 41. رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي، فرأيت دموعه تسيل.

هكذا سادت وظيفة النزوع إلى الآخر؛ إن تحببا أو أمرا أو جهدا للوصل والتواصل، والصحيح أنّه بتواصله مع الله في كلّ أحواله؛ إن قائما وإن قاعدا وإن مستلقيا وإن ماشيا وإن راكبا و... قاصدا الإصغاء إلى كلام بعينه، يريد من وراء هذا خلق جو من التواصل، قد يدعوه إلى البحث عن التجديد والتغيير، فيفضي به إلى البكاء والخوف والرهبة في مواطن بعينها، أو إلى البسط والانشراح والأمان والرغبة في مواطن أخرى، فيرقّ قلبه وتذوب خشونته، ومن ثمة يقبل على العمل ويخلص النية...

وقد يكون مقتنعا أو منفعلا أو قلقا أو خجلا وقد يشعره الخطاب بالجمود فلا يهزه الخطاب لخلل فيه، وقد يزيد هذا المخاطَب من تعنته وجحوده وكفره ونكرانه. فعن أبي واقد الليثي؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه. إذ أقبل نفر ثلاثة. فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد. قال فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأما أحدهما فرأى فرجه في الحلقة فجلس فيها. وأما الآخر فجلس خلفهم. وأما الثالث فأدبر ذاهبا. فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله، فآواه الله. وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه. وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه**"، وفي هذه الأثناء يكون المخاطِب محمولا على الاسترسال، ويكون فيها المخاطَب مكرها على الاستماع على اعتبار أنّ الظاهرة الاتصالية عملية إخبار وإعلام تهتمّ بنقل الخبر من مخاطِب إلى مخاطَب، وتهتمّ بتوضيح الخبر المنقول والإبداع في التبليغ، وأحيانا حتى في الإلزام المادي والمعنوي، فقد فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: "**إن الله أرسلني مبلغا ولم يرسلني متعنتا**". فإذا كانت الظاهرة الاتصالية على هذا النحو، فإنّه والحال هذه تظهر سيطرة الرسالة وهيمنة المخاطِب

ودونية المتلقي،[35] الذي يقع تحت سلطة المخاطِب وخطابه، وهي سلطة لا تعني إلغاء أهميته في العملية التواصلية في الخطاب الديني؛ إذ لا شك أنّ افتتاح القرآن الكريم بكلمة <اقرأ> يعني التأكيد على حضوره، بل على صلته الوثيقة بالتواصل، فلا أحد يكتب أو يتكلم من دون حضور أو استحضار طرف آخر، بالإضافة إلى «أنّ ما علا يؤثّر ولا يقبل التأثير، وما سفل يتأثر»،[36] كذلك فإنّ هذا التواصل قد يدعوه إلى البحث عن جمالية خاضعة لنظام معين يتماشى والمخاطَب، إنّها أفعال إنجازية تصاحب القراءة أو بتعبير أوستن "أفعال إخبارية".[37]

ثمة إذا تواصل يقوم بين العبد وربه، وهو الذي حدا بالمخاطب إلى التوجّه نحو الخطاب ليبلغ منه غايته، وهكذا تصير جمالية التلقي نظرية توفيقية تجمع بين جمالية النص وجمالية تلقيه، استنادا إلى تجاوبات المتلقي وردود فعله، باعتباره عنصرا فاعلا وحيّا، يقوم بينه وبين النص الجمالي تواصل وتفاعل فني، ينتج عنهما تأثر نفسي ودهشة انفعالية، ثم تفسير وتأويل، فحكم جمالي استنادا إلى موضوع جمالي ذي علاقة بالوعي الجمعي؛[38] لأنّ المخاطِب كان يهدف إلى إيصال كلام غاية في الإنسانية، من أجل الإعراب عن جملة من القيم الجمالية العليا، مستندا في ذلك إلى شروط معينة يجب توافرها كالعقل المجرد في الإبلاغ والإيصال والتفهيم والإقناع، وكالقلب في التأثير بأساليب فنية وجمالية خاصة، تحكمها أصول مشتركة بين قطبي التواصل المخاطِب والمخاطَب. فعن عقبة بن عامر؛ قال: كانت علينا رعاية الإبل. فجاءت نوبتي. فروحتها بعشي. فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يحدث الناس. فأدركت من قوله: **"ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه. ثم يقوم فيصلي ركعتين. مقبل عليهما بقلبه ووجهه. إلا وجبت له الجنة"** قال فقلت: ما أجود هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود. فنظرت فإذا عمر. قال: إني قد رأيتك جئت آنفا. قال: "ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ (أو فيسبغ) الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء".

وفي حال إذا ما تلقّف المخاطَب هذا الخطاب وفقا لهذه الشروط، تتحول القيم الجمالية التي أودعت في الخطاب إلى جماليات يصعب حصرها وقد يستحيل، وبالتالي فإنّ هذا التواصل تحقق؛ لأنّه قام على نظام لغوي مشترك تمّت فيه مراعاة ظروف الاتصال والتواصل، مع العلم بأن التواصل مع الغير يجيء على شكل إثبات أو تساؤل أو طلب أو أمر من دون أن يتوقف ليكون تواصلا.[39]

وإن نعجب فعجب أن نجد التواصل على هذا النحو من الشمولية والتمام، وخصوصا عندما يتنوع الخطاب وتتنوع أحكامه تبعا لتنوعه، فهو يجعل جميع صنوف هؤلاء المخاطَبين

قلوبا متوحدة في أجساد متفرقة، وأرواحا متعالقة في عقول متباينة، فهو يشدّ المخاطَب فلا يزيغ عن الخطاب محتوى أو شكلا، أو محتوى وشكلا في آن معا. وإن رغب عنه فلعيب أو خلل موجود في المخاطَب ناتج عن جحوده وتعنته، مع شدة إعجابه به وانبهاره في ذات الوقت، فكلّ فئة من هذه الفئات قد وجدت لنفسها موضعا داخل الخطاب في أوضاع متراوحة بين الإقبال والإدبار والتصديق والتكذيب و... ومن خلالها - أي الفئات - كان الفعل التواصلي خاضعا لنمطين من المخاطَبين؛ المؤمن والكافر. فعن زيد بن خالد الجهني؛ قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل. فلما انصرف أقبل على الناس فقال: "**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "قال: **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**".

ولذلك بدل أنّ نقول مثل الحكماء: إنّ الإنسان مدني بالطبع، يمكن القول: إنّ الإنسان تواصلي بالطبع؛ لأنّه في كلّ حركة من حركاته، وفي كلّ سكنة من سكناته لا يكف عن التواصل مع نفسه ومع غيره، إذ التواصل هو الأصل في التعايش.

سيقت أحاديث الرسول القولية والفعلية والتقريرية في إطار واحد موجه للخاصة والعامة على حد سواء، فحافظت على مستواها الرفيع البيّن، ولم تمل إلى الخاصة لتترفع في مخاطبتهم، ولم تركن إلى العامة لتتبذل في مخاطبتهم، كلا.. ما لمسناه فيها أنّها جمعت صفتي النبوة والقرب في آن معا، وهو الشيء الذي لا نعثر عليه في كلام بني البشر كلهم، وقد سئل أبو تمام ذات مرة: لِم لا تقل ما نفهم؟ فأجاب: لم لا تفهمون ما أقول! وكان من المنتظر أن يكون ردّه النزول إلى مستوى الناس حتى يستقطب فكره وإبداعه أكبر قدر من المتلقين، ويشد انتباه أفهام أكبر عدد منهم، والشواهد من هذا القبيل كثيرة منذ أن بدأ الإنسان يبدع إلى يومنا هذا. ومثاله ما رواه أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: **(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ)** شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: "**أنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) إنما هو الشرك**".

إنّ السنة النبوية هي أقوال وأفعال تكلّف الرسول - صلى الله عليه وسلم - تبليغها كاملة، ولما كانت السنة - أيضا - من العليم القدير في شقها المتعلق بالأحاديث القدسية، ومن الرسول للناس جميعا قوبل كل فرد بخطاب يناسبه؛ فقد قوبل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بخطاب التشريف والتعظيم والمدح، فقد قال عبد الله: حدثني أبي عمر بن الخطاب، قال: بينما

نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب. شديد سواد الشعر. لا يرى عليه أثر السفر. ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فاسند ركبتيه إلى ركبتيه. ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتقيم الصلاة. وتؤتي الزكاة. وتصوم رمضان. وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلا" قال: صدقت. قال فعجبنا له. يسأله ويصدقه.** قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: **"أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. وتؤمن بالقدر خيره وشره"** قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: **"أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه، فإنه يراك"**. قال: فأخبرني عن الساعة. **قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"** قال: فأخبرني عن أمارتها. قال: **"أن تلد الأمة ربتها. وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان"**. قال: ثم انطلق. فلبثت مليا. ثم قال لي: **"يا عمر! أتدري من السائل؟"** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **"فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"**. ومثله حديث التشريف والتعظيم الذي تشرّف عبد الله بن عمرو بن العاص بسماعه عن النبي صلى الله عليه وسلم القائل: **"إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول. ثم صلوا علي. فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا. ثم سلوا الله لي الوسيلة. فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة"**. غير حديث الإهانة والتهكم الذي حدث به أنس بن مالك عن قتادة والذي جاء فيه؛ أن رجلا قال: يا رسول الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: **"أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا، قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟"**. وحديث الرضا والقبول - الذي جاء في حق المؤمنين الصالحين الذاكرين الله في كل وقت وحين بالباقيات الصالحات - كالذي ورد عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **"إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة. فضلا. يتبعون مجالس الذكر. فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم. وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم. حتى يملؤا ما بينهم وبين السماء الدنيا. فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء. قال فيسألهم الله عز وجل، وهو أعلم بهم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك. قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك. قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا. أي رب! قال: فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك. قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك. يا رب! قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا. قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك. قال فيقول: قد غفرت لهم. فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا. قال فيقولون: رب! فيهم فلان. عبد خطاء. إنما مر فجلس معهم. قال فيقول: وله غفرت. هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"**. وكالذي

ورد عن أبي سعيد الخدري؛ من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك. ربنا! وسعديك. والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني. فلا أسخط عليكم بعده أبدا**". ليس شبيها بحديث السخط والرفض، الذي قوبل به أبو جهل، فقد ذكر أبو هريرة، قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب. قال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي. زعم ليطأ على رقبته. قال فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه. قال فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا**".

وحديث الأمر والنهي الذي شفع به علي رضي الله عنه خطبته. فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا تكذبوا علي فإنه من يكذب علي يلج النار**". غير حديث الدعاء والامتثال عن أبي هريرة، حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن. سبحان الله وبحمده. سبحان الله العظيم**". وقوبل المؤمنون بخطاب الكرامة والتحبيب والتشجيع والتحريض والتخويف، فعن ابن عباس؛ أن معاذا قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: "**إنك تأتي قوما من أهل الكتاب. فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. فإن هم أطاعوا لذلك. فأعلمنهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم. فإن هم أطاعوا لذلك. فأعلمنهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوا لذلك. فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم. فإن هم أطاعوا لذلك. فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**". وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**" رواه مسلم، وقوبل الكافرون والمنافقون بخطاب التكذيب والتعجيز والذم والإهانة والتهكم مثل قوله: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أربع من كن فيه كان منافق خالصا. ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق. حتى يدعها: إذا حدث كذب. وإذا عاهد غدر. وإذا وعد أخلف. وإذا خاصم فجر**" وقوبل هؤلاء جميعا بخطاب الترغيب والترهيب مثل قوله: عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**». قالوا: يا رسول الله، من يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنّة، ومن عصاني فقد أبى**». وعن عبد الله بن عمر؛ أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال: "**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وصار أهل النار إلى النار، أتى بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار. ثم يذبح. ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة! لا موت. ويا أهل النار! لا موت. فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم. ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم**". وعن عائشة.

قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه. ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه**" فقلت: يا نبي الله! أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت. فقال: "**ليس كذلك. ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته، أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه، كره لقاء الله، وكره الله لقاءه**". فالحديث الذي هو موجه للمؤمن يختلف محتواه ووقعه عن الذي هو موجه للكافر، كما قوبلوا بخطاب العام المراد به العموم بناء على ما رواه البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»، وقوله عليه السلام: "**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله تعالى وسنة رسوله**"، أو ما رواه مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**". أو خطاب الخاص المراد به العموم فعن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: "**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**" أو خطاب العام المراد به الخصوص، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعط أجره**». أو بخطاب الخاص المراد به الخاص، فعن أنس بن مالك، قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب: "**إن الله أمرني أن أقرأ عليك: لم يكن الذين كفروا**" البينة 1 قال: وسماني؟ قال: "**نعم**" قال: فبكى. أو بخطاب الجنس ومثله ما ورد عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**يا معشر النساء! تصدقن وأكثرن الاستغفار. فإني رأيتكن أكثر أهل النار**" فقالت امرأة منهن، جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار. قال: "**تكثرن اللعن. وتكفرن العشير. وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن**" قالت: يا رسول الله! وما نقصان العقل والدين ؟ قال "**أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل. فهذا نقصان العقل. وتمكث الليالي ما تصلي. وتفطر في رمضان. فهذا نقصان الدين**".

أو النوع أو الجمع بلفظ الواحد أو العكس أو بخطاب الجمع بعد الواحد... وغيرها من أنواع الخطابات بتنوع المخاطبين حيث روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليَصدُق حتى يكونَ صديقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً".**

وحري بنا أن نشير إلى أنّ كلّ طبقة كانت سببا رئيسا في تحديد المعاني والألفاظ وأساليب التكرار والإيجاز والمجاز... وهي في الوقت ذاته تشير إلى أنّ المخاطِب "الله والرسول" يقرران طبيعة كلامهما باختيارهما نوعا محددا من المخاطَبين الذين يتباين واقعهم النفسي المزاجي والمعيشي الاجتماعي والتاريخي الزمني وخبرتهم و... وبالتالي يقوم هذا النوع من التواصل بتشكيل النموذج الأمثل لتحديد أساليب الوعي لأشكال التعبير المتفردة.

... مما يفضي إلى القول: إن لهذا الخطاب بنيته الخاصة وأهدافه، ومن ثمة أنماطا من المخاطَبين يتوفرون على درجة معينة من كفاءة التلقي، على أساس أنّ «العلاقة التفاعلية بين الأثر والمتلقي علاقة متميزة بمظهرين اثنين: الأول مظهر جمالي يعكس أحكام قيمة تستند إلى المرجعية المشتركة بين الباث والمتلقي... والثاني مظهر تاريخي يتمثل في أنّ الاستيعاب المبدئي للنص لا يفتر عن أن يغتني ويتطور ليكشف خلال سيرورته التعاقبية عن أنواع من التلقي التي لا بد من أن تعكس قيمة الأثر ومكانته».[40] ويتضح هذا في عديد من الأحاديث التي تمثلت حقا تلك العلاقة التفاعلية، ذات الشق الإيجابي والمهم بين طرفي التواصل، إن على المستوى التاريخي أو الجمالي، كما هو بارز في هذا الحديث الذي ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"من سرّه أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء".**

ولئن كان هذا الخطاب بمنزلة بلاغ كان من الضروري أن يتضمن علامات خاصة، متفاوتة بتفاوت درجة صاحب الخطاب والمخاطِب والمخاطَبين، الأول فالثاني. .. وهكذا.

لقد احتوت السنة الشريفة على القول والفعل، فكان من الطبيعي أن تحتوي صنوفا من المراتب التي لها مواصفاتها وخصائصها، ولمّا كانت كلّ سيرورة تواصلية تستلزم نقل خطاب بين مخاطِب ومخاطَب يمتلكان بشكل مشترك، جزئيا على الأقل، الشفرة الضرورية لتداول الخطاب، كان من الطبيعي أن يصوغ أسلوب التفكير، «لقد صاغ له نهجا واضحا للتفكير والتأمل والتدبر، ونهجا واضحا للعمل والممارسة، ولم يكن النهج

والأسلوب محصورا في الفرد وحده، ولكنّه بنى على ذلك نهجا للأمة كلّها، نهجا للرأي العام، نهجا للإنسانية كلّها».[41]

تمثل العلامات الصادرة عن المخاطِب أو المخاطَب ملمحا من ملامح ردود الفعل الناتجة عن التواصل، كأن يتّسم المخاطِب بالرحمة والعفو والعزة والكبرياء والجبروت... كما هو شأنه ـ عز وجل فعن أبي هريرة؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي**". وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة. ثم يأخذهن بيده اليمنى. ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله. ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**".

وكأن يتحلى المخاطَب بالتقوى والرحمة والتسامح والانشراح... إن كان مؤمنا، فعن أبي كثير، يزيد بن عبد الرحمن. حدثني أبو هريرة قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة. فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره. فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي. قلت: يا رسول الله! إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي. فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره. فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**اللهم! اهد أم أبي هريرة**" فخرجت مستبشرا بدعوة نبي الله صلى الله عليه وسلم. فلما جئت فصرت إلى الباب. فإذا هو مجاف. فسمعت أمي خشف قدمي. فقالت: مكانك! يا أبا هريرة! وسمعت خضخضة الماء. قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها. ففتحت الباب. ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. قال فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته وأنا أبكي من الفرح. قال قلت: يا رسول الله! أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة. فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا. قال قلت: يا رسول الله! ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عبادة المؤمنين، ويحببهم إلينا. قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**اللهم! حبب عبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين. وحبب إليهم المؤمنين**" فما خلق مؤمن يسمع بي، ولا يراني، إلا أحبني. وعن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**".أو بالقسوة والانقباض والتجهم، إن كان كافرا أو منافقا. فقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: **نعم**. فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: **نعم**. فقيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: **لا**.

وهذه كلّها سلوكات تعكس أدب التخاطب. فلقد خاطب الرسول الله وملائكته ورسله وكل عباده الصالحين وغير الصالحين، وخاطب الجن وإبليس، وكل واحد من هؤلاء له محوره الخطابي الخاص به.

فأما خطابه الله فكله دعاء ورجاء وإقرار وحمد وثناء، فعن المغيرة بن شعبة؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى حتى انتفخت قدماه. فقيل له: أتكلف هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال: "**أفلا أكون عبدا شكورا**". عن عائشة؛ قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول: "**سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه**". قالت فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر من قول: "**سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟**" فقال: "**خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي. فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها. إذا جاء نصر الله والفتح. فتح مكة. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**". ولأن خطابه بلغ أسمى مراتب التواصل لما فيه من تذلل وخضوع لله وحده، ليلا ونهارا، في حله وترحاله، في فرحه وحزنه، في غناه وفقره، في صحته ومرضه، ولأن الرسول ليس هناك من يجاريه رقة ورحمة بأمّته، فاقت رحمة الأم بوليدها، ولأنه الصادق الأمين الذي يشعر أن أمته أمانة في عنقه وأنه مسؤول عن الناس كافة من حيث التبليغ فقد جاء خطاب الرسول لربّه في منتهى الصدق والأدب وقد غفر الله له كل ذنوبه المتقدم منها والمتأخر فبأدبه المعهود يستأذن ربه يوم القيامة ليشفع لأمته عندما يستحيي جميع الرسل من خطيئتهم فيؤذن له ويخر ساجدا طاعة لله فيقابله الله ويكافئه بأروع ما يشتهيه العبد وقت ذاك؛ النظر إلى سبحات وجهه في قول الرسول الكريم: "فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا. فيدعني ما شاء الله". وقوله تعالى: "ارفع رأسك". وفي هذا إشارة إلى رفعته صلى الله عليه وسلم ومكانته العالية، وفي الرأس إشارة إلى التذلل والخضوع إلى جناب الله بأعز ما منّ الله به عليه في جسده كله، ثم يفيض عليه من خيره وبرحمته فيقول له: "يا محمد! ارفع رأسك. قل تسمع. سل تعطه. اشفع تشفع. فأرفع رأسي. فأحمد ربي. بتحميد يعلمنيه. ثم أشفع. فيحد لي حدا فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة. فأقول: يا رب! ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود". ما رواه عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما خطابه صلى الله عليه وسلم ملائكته فقد تجل في جبريل، كان من أجل إخباره شريعة الله حيث حدث أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال: "**أتاني جبريل عليه السلام. فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن**

سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق"، وفي هذا تعليم لعباده أهمية توحيد الله وأن المعاصي الأخرى لا ولن تصل إلى درجة الشرك بالله فهي كبيرة لا يغفرها الله، فهو القائل تبارك وتعالى: "**أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**". وعن أبي سعيد الخدري، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه. فقال: "**ما أجلسكم؟**" قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومن به علينا. قال: "**آلله! ما أجلسكم إلا ذاك؟**" قالوا: والله! ما أجلسنا إلا ذاك. قال: "**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم. ولكنه أتاني جبريل فأخبرني؛ أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة**". وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي، كرب لذلك، وتربد وجهه، ونكس رأسه، وأما خطابه تعالى فإنه متراوح بين الترغيب والترهيب "**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**"، فإنها تشمل كل عباده الذين خصهم بالعبودية ونسبهم إليه تكريما وتشريفا. وأما خطاب العبد ربه فيتجلى فيما رواه أنس بن مالك، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضحك، فقال: "**أتدرون مِمَّ أضحَكُ؟ قلنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أعلم، قال: "مِن مُخَاطَبَةِ العَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ يَا رَبُّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قال: فيقول: بَلَى، قال: فيقول فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إلا شَاهِدًا مِنِّي، قال: فيقول كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قال: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي، قال: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قال: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلامِ، فيقول بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**"، وقد رتّب - عليه السلام - التواصل ترتيبا تنازليا حتى يقع كلامه في نفوس الجميع على تفاوت قدرتهم في التلقي؛ ذلك أنّ خطابه - صلى الله عليه وسلم - دليل آخر من الأدلة الكثيرة الدالة على صدق رسالته، ويحظى الرسول الكريم بأعلى المنازل وأسماها، حيث فضّله الله على كلّ النبيين والمرسلين بأن جعله سيّد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، فقال: **(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)**، الإسراء 55، وخصّه بأشرف الرتب، لشرف ما حمّله الله تعالى و كلّفه به، لأداء الخطاب الحق، آخر الخطابات التي لا يأتيها الباطل وليس له إليها سبيل، وقد حظيت بشرف العناية الربانية لقوله تعالى: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**. الحجر 9

وقد كان خطاب الله لرسوله محمد غير خطابه لرسله - عليهم الصلاة والسلام - في القرآن الكريم كله وفي أحاديثه القدسية؛ إذ إنّه تبارك وتعالى من دون كلّ الرسل أفرد

ذكر رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرسالة والنبوة، وشرّفه بمناداته بـ "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ" و"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" على سبيل التشريف والتكرمة؛ لأنّ لفظ الرسالة والنبوة مشعر بالتعظيم والتكريم، وفي ندائه بهما، اعتناء بشأنه، وتنويه بمقامه، وتنبيه على سمو مكانه. فضلا عن أنّ الله ـ عزّ وجل ـ خصّه بالذكر في قوله: **(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)** آل عمران 68 تعظيما له، وللدلالة على أنّ رسالته موافقة لما جاء به إبراهيم ـ عليه السلام ـ في أكثر شرعه دينا قِيَمًا ملة إبراهيم حنيفا، وإن كان ذكر "لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ" قد عمّه وشمله.

كذلك هذه النداءات التي وُجهت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تخل من تسلية وشد أزر، إذ أمره الله ألا يهلك نفسه أسفا إن أعرض بعض الناس عن القرآن ولم يؤمنوا به، وألا يحزن لما يناله من أذى من أعدائه، فهو سبحانه سيكفيه شرّهم ويعصمه منهم، فقال مناديا إياه بأشرف الأوصاف: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)** آل عمران 68 وناداه أيضا في موضع آخر بالرسالة الربانية فقال له: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)** المائدة 67. مثلما شرّفه بمناداته بالنبوة أكثر من مرة، في وقت كان فيه في أمس الحاجة إلى من ينصره بالقول والفعل فقال له: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** الأنفال 64. كما أبرز اسمه في مواضع معينة في القرآن مقرونا في أغلب الأحوال بالرسالة والإنزال فقال: **(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)** آل عمران 144، وقال: **(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ)** محمد2، وقال: **(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)** الصف 6. وقد جمع له بين الرتبتين العظيمتين الرسالة والنبوة **(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)** الأحزاب 40، وقال: **(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)** الأعراف 157؛ لأنّ مقام الرسالة أخصّ من مقام النبوة، فإنّ كلّ رسول نبي ولا ينعكس الأمر، حيث إنّهما يشتركان في أمر أعمّ وهو النبأ، ويفترقان في أمر أخص وهو الرسالة. وذكره الله بلفظ العبودية تعظيما لشأنه وتخصيصا له فقال: **(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)**

البقرة23، وأضافه إليه زيادة في التشريف والتكريم في مواضع أخرى فقال: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ)** النساء 136، وقال: **(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)** سورة التغابن ـ الآية 12، وقال: **(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)** النجم 10. كما امتد هذا التشريف في عديد من الأحاديث القدسية ليخاطبه بـ"يا محمد" ليؤكّد أنّه محمود عند ربه في الدنيا وعاقبته محمودة.

و لمّا كان خطاب الله للرسول غير خطابه للرسل كان من الطبيعي أن يكون خطاب الرسول لربه مميزا متفردا، وحسبنا قوله تعالى: **(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** سورة فصلت ـ الآية 33. وكان هذا شأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، لقد كان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ إذا تلا هذه الآية يقول: "هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته، وقال إنني من المسلمين، هذا خليفة الله الذي أوحى إليه ربّه ما أوحى وعلّمه ما لم يعلم، فدعا بالطريقة نفسها التي دعا الله بها الناس إلى الجنة والمغفرة بإذنه، وبيّن آيات ربّه لهم لعلهم يتذكرون، وعلّمهم كيف يكون خطابهم لربهم مثلما تعلّمه منه مراعاة للأدب معه وتحقيقا للتواصل الجيد في قوله صلى الله عليه وسلم: "قل: اللهم! إني ظلمت نفسي ظلما كبيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت. فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم". وعن جابر. قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يدخل أحد منكم عمله الجنة. ولا يجيره من النار. ولا أنا. إلا برحمة من الله". وكان صلى الله عليه وسلم قد تعلم هذا من القرآن الكريم الذي جاء فيه: **(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** آل عمران26.

و لئن كان الرسول الكريم قد سأل الله عزّ وجلّ أن يجعل ملك فارس والروم في أمته ـ كما روى ذلك قتادة و مقاتل[42] ـ فإنّه ـ تعالى ـ علّمه هذا الدعاء من دون التصريح بالسؤال. وقد اقتصر على ذكر الخير دون ذكر الشر "بِيَدِكَ الْخَيْرُ" وإن كان كلّ شيء من عنده سبحانه وتعالى، والتقدير بيدك الخير والشر، فما نسبه إلى ربه أدبا معه، وفي هذا تعظيم لله وشكر له وتفويض إليه وتوكل عليه.

ويخرج الرسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ بعد التلقي من عهدة التكليف بالتبليغ ليدخل إلى عهدة التواصل، وينضم إلى جموع المتلقين الذين انشطروا إلى قسمين: قسم يقبل ويذعن،

وقسم يرفض ويتولى، فمهمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تقف عند حدود التبليغ فقط بل تستوجب النزول إلى كل الفئات من الناس والوصول إليهم قولا وعملا، لذلك ألفيناه ومن اتّبعه من المؤمنين ممّن علّمهم يقولون بالسمع والطاعة لله ولرسوله إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا**". وعن أبي موسى. قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر. فجعل الناس يجهرون بالتكبير. فقال النبي صلى الله عليه وسلم "**يا أيها الناس! اربعوا على أنفسكم. إنكم ليس تدعون أصما ولا غائبا. إنكم تدعون سميعا قريبا. وهو معكم**". وقد أخبرنا أبو مالك عن أبيه؛ أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم، وأتاه رجل فقال: يا رسول الله! كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال "**قل: اللهم! اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني**" **ويجمع أصابعه إلا الإبهام "فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك**".

والسنة تحفل بكثير من الأحاديث التي تصب في هذا الإطار، هكذا فقد كان الرسول ـ عليه السلام ـ يعدل عن بعض الصيغ، ويستعمل أساليب مخصوصة ليكون كلامه مع ربه موصوفا بحسن الأدب، ولأنّه القدوة فإنّ هذا النوع من الأدب في الخطاب هو تأديب لغيره من جهة وحسبه ذلك في **(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ)** الأنعام 90، وليكون المعنى أبلغ وأكمل من جهة أخرى.

وانتقل أدب الرسول في خطابه لربه إلى أدب شمل جميع الأمم التي أرسل إليها من أجل أن يقرّب الفهم منهم، ولا سيما الخصوم والمجادلين والمعاندين، عن طريق ذكر حقائق تؤكّد وحدانية الله عزّ وجلّ، ودلائل تجزم بمطلق قدرته، وبأسلوب اللين حتى مع الطغاة والمعاندين، طاعة لأمر ربّهم **(فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)** البقرة 275؛ ذلك أنّ الموعظة تستلزم جملة من الشروط لعل من أهمها: الحلم، واللين، ودرجة الألفة، والسن والمكانة أو ما يعرف بالمسافة الاجتماعية، والقوة النسبية وحجم السيطرة؛[43] اللتين تظهران بكثافة في صواب فكر المتكلم وحكمته ورجاحة عقله... وكلّها مواصفات نجدها عند الرسول الكريم، عن معاوية بن الحكم السلمي؛ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذ عطس رجل من القوم. فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم؟ تنظرون إلي. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما رأيتهم يصمتونني. لكني سكت. فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه. فو الله! ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني. قال: "**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**". وعن أبي هريرة؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إذا أم**

أحدكم الناس فليخفف. فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض. فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء". وعن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها. فأسمع بكاء الصبي. فأخفف. من شدة وجد أمه به"**.

وكل هذا يشير إلى أخلاق رفيعة ويؤكّد وجود علاقات تواصلية سامية، كذلك من شروط الموعظة الحسنة اللين ليكون هذا النوع من القول أوقع في النفوس وأنجع، فترجع عمّا هي فيه من الغيّ والطغيان والضلال، واللين في القول هنا لا يدل على الضعف، وإنما دلالة على الرقة وحسن المعاملة، ولطالما تكررت عبارة "يا قوم" "أمتي" على لسان الرسول، وكانت دعوة الرسول يا قوم الذي نادى قومه بهذه العبارة طيلة فترة مكوثه بينهم، التزاما بما أمره الله "قُلْ يَا قَوْمِ"، ثم لعلمه بقيمة هذه اللفظة من الناحيتين: الحسية والعقلية؛ إذ في إيراد الكلام بلفظ "يا قوم" إشارة إلى القرب والانتساب، لما فيها من حنو ورفق، ورغبة في صون قومه من العذاب وإرشادهم إلى الحق، وقد نصح الرسول قومه باستعمال عبارة "يا قوم"؛ فهو نادهم بلفظة "يا" وعينهم بلفظة "قوم"، ثم نصح لهم، ونبّههم، وأمرهم، وحذرهم، وخوّفهم كما أمره ربه. قال صلى الله عليه وسلم: "**سألت ربي ثلاثا. فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها. وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**". وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**كل أمتي معافاة إلا المجاهرين. وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملا، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان! قد عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه. فيبيت يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه**".

فقد خاطب الرسول الكريم الناس بعبارة القوم ومعشر ومعاشر وأمتي بأسلوب بديع بليغ فيه نهي وأمر لما اقتضاه السياق والمقام كما وظف عبارة عباد الله تذكيرا بالعبودية لله وحده وإلزاما بهذه الطاعة التي هي الأصل في الوجود؛ فعن أبي هريرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا تحاسدوا. ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض. وكونوا، عباد الله! إخوانا**.

وقد حدث أبو أمامة قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، ونحن قعود معه، إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله! إني أصبت حدا. فأقمه علي. فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أعاد فقال: يا رسول الله! إني أصبت حدا. فأقمه علي. فسكت عنه. وأقيمت الصلاة. فلما انصرف نبي الله صلى الله عليه وسلم قال أبو أمامة: فاتبع الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف. واتبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنظر ما يرد على

الرجل. فلحق الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إني أصبت حدا، فأقمه علي. قال أبو أمامة: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟" قال: بلى. يا رسول الله! قال "ثم شهدت الصلاة معنا؟" فقال نعم. يا رسول الله! قال فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "فإن الله قد غفر لك حدك. - أو قال - ذنبك"**. وقال عمرو جابر بن عبد الله: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة. فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**ما بال دعوى الجاهلية؟**" قالوا: يا رسول الله! كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال: "**دعوها. فإنها منتنة**" فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها. والله! لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: "**دعه. لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه**".

ومن هنا يمكن القول : يمثل كلّ من الهجر والإعراض والترك والاعتزال في مثل بعض السياقات التي وردت في السنة النبوية أسلوبا من أساليب التواصل الحضارية، التي وإن كانت تدل على القطع والانفصال في اللغة، فإنّها في الوقت ذاته تشير إلى طريقة خاصة في تجديد الاتصال، وكأنّ صلى الله عليه وسلم بأمر من ربه يمهل كلا من العصاة والكفار والمنافقين فسحة من الوقت ليراجعوا أنفسهم رحمة بعباد الله، إذ ما يفعل الله بعذابهم إن شكروا وآمنوا. فعن الأغر أبي مسلم. يرويه عن أبي سعيد وأبي هريرة. قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إن الله يمهل. حتى إذا ذهب ثلث الليل نزل إلى السماء الدنيا. فيقول: هل من مستغفر! هل من تائب! هل من سائل! هل من داع! حتى ينفجر الفجر**".

ثم إنّ في الصبر دلالة على امتداد التواصل وتجدّده، فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينصح ويقول فيلقى ردا قد يكون مثوبة وإيمانا، وقد يكون استهزاء وكفرانا، ومثلما يتجدّد النصح والرّد يتجدّد الصبر. أمّا الهجر الذي دعا إليه الله فهو الهجر الذي يتبعه لقاء، لأنّ الهجر أنواع وأصناف؛ كأن يكون هجرانا أبديا مطلقا كقوله تعالى: **(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)** المدثر 5، ففي الآية أمر بترك المعاصي والآثام والمداومة على هذا الهجران، والهجر الجميل هو الذي قال عنه المفسرون الذي لا عتاب معه ولا يشوبه أذى ولا شتم.

إذن فإذا كان بعض قوم رسول الله كفرة، وقد عاملهم بأدب حسن دال على خلقه العظيم، فأولى به ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعامل قومه ممن آمنوا بأدب أرفع وأروع، وقد تحقّق هذا عندما نفّذ أمر ربّه، وبسط لهم من رحمته وعفوه، واستغفر لهم، وشاورهم، وأكرمهم... وغيرها من الخلال المرضية التي جمعها الله فيه، فما ضنّ بها على أحد، وحسبه ما قال عن

نفسه في رواية لأبي هريرة. قال: قيل: يا رسول الله! ادع على المشركين. قال: **"إني لم أبعث لعانا. وإنما بعثت رحمة"**. وعن أنس بن مالك؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"إن الأنصار كرشي وعيبتي. وإن الناس سيكثرون ويقلون. فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم"**.

ولم يكتف النبي الكريم بالأحاديث وإنما طبيعة الرسالة اقتضت استعمال أنواع مختلفة من الخطابات، ذات صلة بالفتوحات وبسط أركان الإسلام في أرجاء المعمورة؛ كمراسلته للأمراء والملوك والقواد، أو كمعاهدات الصلح والأمان وغيرها.. بجرأة لا يشوبها تهيب، بل إنها هي ذاتها تبعث على الهيبة إلى من يتلقاها، الأمر الذي جعل أسلوبها يتسم بالدقة والصراحة، ويتجه إلى المعنى مباشرة، وجميعها ذات وثيرة واحدة، من حيث سمو جمالها البلاغي القائم على الإقناع والتأثير، فقد راسل عليه الصلاة والسلام كسرى ملك الفرس قائلا بأسلوب لم تعهده العرب من قبل، وفيه من الحيطة والحذر، ومن التعميم إلى التخصيص، والترغيب والترهيب الشيء الكثير؛ بدءا من إخبار المتلقي بأنه صاحب رسالة عظيمة، فهي من الله إلى رجل عظيم هو محمد رسول الله، ثم انتقالا إلى الدعوة التي يجب اتباعها، بأسلوب الرسول الذكي الواثق من الغلبة بتأييد من اللهن والذي يعرف متى وكيف يلقي رسالته، تاركا وراءه أمرا لابد من الامتثال إليه، من دون أن يشعر الآخر بأنه ملزم به؛ لأنه بكل بساطة تأثر فاقتنع: "من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم الفرس: **"سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله تعالى؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم"**. هو ذا أدب خطاب الأنبياء بل دأب أدبهم في مخاطباتهم بلين، وفي كل حركاتهم وسكناتهم، وقد أدى الرسالة على أكمل وجه مع علمه صلى الله عليه وسلم باستعلاء كسرى وتجبره، فمزق الكتاب، فكان مآله أن مزّق كل ممزق.

كما استعمل القصة في أرفع أشكالها، وأروع ظلالها، بشكل بارز ولافت للنظر، وقد جاءت لتسهم في الإرشاد، والتربية، والعظة، لأداء الخطاب على أكمل وجه. فوظفها أحسن توظيف وأبرز الأدوار التي أسندت إلى شخصيات القصة بشكل دقيق وبديع. فحفلت بزخم هائل من فنون التبليغ بالنسبة إلى طريقة عرضها وإدارة حوادثها، ويكفي أن نشير إلى بعضها لكثرتها؛ كقصة. الأبرص والأقرع والأعمى الذين امتحنهم الله، بعد أن ابتلاهم، ثم منّ الله عليهم من فضله ورزقه، ولكن كل من الأبرص والأقرع جحدا نعمة الله فأصيبا ببلاء وسخط جنته نفسهما غير السوية، في حين شكر الأعمى ربّه وأقر بفضله وكرمه

فرضي عنه اللّه؛ فقد حدث عبد الرحمن بن أبي عمرة؛ أن أبا هريرة حدثه؛ أنه سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول: "إن ثلاثة في بني إسرائيل. أبرص وأقرع وأعمى. فأراد اللّه أن يبتليهم. فبعث إليهم ملكا. فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قذرني الناس. قال فمسحه فذهب عنه قذره. وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل (أو قال البقر) إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما: الإبل. وقال الآخر البقر - قال فأعطى ناقة عشراء. فقال: بارك اللّه لك فيها. قال فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس. قال فمسحه فذهب عنه. وأعطي شعرا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر. فأعطي بقرة حاملا. فقال: بارك اللّه لك فيها. قال فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد اللّه إلي بصري فأبصر به الناس. قال فمسحه فرد اللّه إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطي شاة والدا. فأنتج هذان وولد هذا. قال: فكان لهذا واد من الإبل. ولهذا واد من البقر. ولهذا واد من الغنم. قال ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين. قد انقطعت بي الحبال في سفري. فلا خطاب لي اليوم إلا باللّه ثم بك. أسألك، بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيرا أتبلغ عليه في سفري. فقال: الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك. ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيرا فأعطاك اللّه؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر. فقال: إن كنت كاذبا، فصيرك اللّه إلى ما كنت.

قال وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا. ورد عليه مثل ما رد على هذا. فقال: إن كنت كاذبا فصيرك اللّه إلى ما كنت.

قال وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل. انقطعت بي الحبال في سفري. فلا خطاب لي اليوم إلا باللّه ثم بك. أسألك، بالذي رد عليك بصرك، شاة أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فرد اللّه إلي بصري. فخذ ما شئت. ودع ما شئت. فواللّه! لا أجهدك اليوم شيئا أخذته للّه. فقال: أمسك مالك. فإنما ابتليتم. فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك".

إذا فكل مخاطَب يستمع أو يقرأ هذه القصة ومثلها يعي أنّه المستهدف الرئيس، سواء تلقى الخطاب بصورة مباشرة أم غير مباشرة، إذ لا بد له أن يقدّر أنّه المقصود بكل خطاب في الكلام النبوي، فإن سمع أمرا أو نهيا قدّر أنّه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أنّ السمر غير مقصود، وإنّما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعفيه ما يحتاج إليه، فما من قصة في السيرة النبوية إلا وساقها

الرسول الكريم لفائدة الناس كافة، إذ لكلّ فئة من هذه الفئات خطاب واحد ولكن بنياته ووظائفه متنوعة، ومن ثمة فإذا كان الخطاب للناس كافة فإنّ المخاطَب ـ أيا كان متلقيا أو قارئا أو مستمعا أو مخاطبا... ـ مستهدف بالدرجة الأولى.

وكذلك ما أخرجه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما، فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق**». فمثل هذه الأمثال تقرّب المعاني إلى الأفهام، وتعرض الغائب في صورة الحاضر، وتجمع المعاني الرائعة في العبارة الموجزة السهلة، وتثبت المعنى في الذهن، وتدفع إلى الاقتناع بأوجز سبيل. وهي وسيلة من وسائل الوعظ والهداية.[44] وهي خطاب موجّه من الرسول للناس كلّهم، فهي تعد وسيلة التوصل إلى ما لا يتوصل إليه بغيرها،[45] وعليه فإنّ الهدف من ضرب الأمثال هو تصوير المشاهد والحوداث ونقلها من باب الترغيب والترهيب، أو التوجيه والتأديب، أو تبيان طريقة السلوك بأسلوب موجز وعميق وجميل، مباشر أو غير مباشر، وبالتالي فإنّ فاعليتها لا تقلّ قيمة عن القصة وما جرى مجراها.

هو ذا أسلوب أفصح العرب قاطبة، إذ لا يمكن لأحد أن يأتي بهذه المقدمة وهذا العرض بأحسن مما أتى به صلى الله عليه وسلم بقوله: "**اللهُمَّ إنّي عبدُك وابنُ عبدِك وابنُ أمتِك، ناصيتي بيدِك، ماضٍ فيّ حكمُك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسمٍ هو لك، سميتَ به نفسَك، أو علّمتَهُ أحداً من خلقِك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك، أنْ تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي ونورَ صدري، وجلاءَ حزني وذهابَ همّي**".

وإن صح لكلام البشر أن يكون مخالفا للصواب، من أجل تحقيق الجمال الفني، فإنّ هذا النوع من الخطابات، وهو كلام سيد الخلق أجمعين، لم يكن مجانبا للصدق، ولو في حديث من أحاديثه، ولم يزغ عن الصواب جملة وتفصيلا، وإنّما كان دقيقا في تصوير أحوال النفس والواقع، وقبل هذا كان محكما في تصوير الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهو في جملته منهاج رباني متكامل؛ في عقيدته وعبادته وتشريعاته ومعاملاته صحة وشرف عجيبان، وصدق وحق مطلقان. ومن ثمة فإنّ صحة المعنى هي الأداة المفتاح التي تعين على التواصل الجاد، من أجل تمكين الخطاب في النفوس قولا وعملا، على أنّه من المهم للغاية أن ننبه إلى أنّه في غياب خاصيتي الوضوح والدقة في المعنى يفقد الخطاب شرعية

وجوده. إنّ الحقيقة التي يحيل إليها كلام الرسول موجودة فيه كلّه، وهي لا تتنافر مع نفائسه الفنية، وهذا أمر جلل استحال وجوده في كلام البشر جميعه، حيث نجد أنّ الناس، على اختلافهم، يذهبون كل مذهب في الإبداع الفني، فمنهم من يميل إلى السهل والمطروح من المعاني، وبعضهم يميل إلى الصعب العسير، الذي لا يفصح عن مكنوناته إلا بشق النفس، ويميل بعضهم إلى مدى مطابقته للصواب والصدق أو مجانبته لهما، من منطلق قولهم "أعذب الشعر أكذبه"... وفي المقابل نجد هذه المسائل تطرح نفسها في كلام الرسول طرحا شفافا، في بناء فكرى متكامل، طرح يؤكّد أنّ الخطاب لا يستقيم صوابه وحسنه ما لم يتوفر على ودائع، أي معان، تتسم بالصحة، والدقة والجودة.

وقصارى القول: إنّ الرسول ـ عليه السلام ـ استعمل كلّ أساليب الدعوة، فخاطب العباد بما يستحقّونه من الكلام، سواء في دعوته لمن آمن بما جاء به ودعائه لهم بالمغفرة والرحمة، أم في دعوته لمن كفر بما جاء به ودعائه عليهم دعاء غير منفر. وهو ـ عليه السلام ـ لا يُقبل على الدعاء عليهم إلا إذا وصل إلى مرحلة الاستيئاس؛ أي لمّا أدرك الرسول أنّ هؤلاء المعاندين المصممين على العصيان والكفر لا يرجى فلاحهم، بعد ما تواصل معهم بشتى السبل لفترات طويلة ومرات عديدة، خوّل الله له الدعاء عليهم بما يستحقون من الهلاك والدمار والعذاب المهين ولأنّ عدل الله يأبى أن يأمر أنبياءه بالدعاء على أقوامهم إلا بما يستحقّون، أدمج سبحانه في أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالدعاء عليهم هجاءهم، بمقتضى ما تضمنّه الكلام من استحقاق الملام فأمره حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدبارا. فقال: "**اللهم! سبع كسبع يوسف**". قال فأخذتهم سنة حصت كل شئ. حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع. وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان. فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد! إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم. وإن قومك قد هلكوا. فادع الله لهم. فكانت جملة أدعيتهم لا تخلو من طلب الرحمة والمغفرة.. عن أبي هريرة. قال: قدم الطفيل وأصحابه فقالوا: يا رسول الله! إن دوسا قد كفرت وأبت. فادع الله عليها. فقيل: هلكت دوس. فقال: "**اللهم! اهد دوسا وائت بهم**".

وكلّ هذه الأدعية جاءت بأسلوب بديع وأدب رفيع، دال على أخلاق فاضلة تمتع بها صفي الله الذي اصطنعه لنفسه.

وقد تحققت له هذه المكانة منذ الصغر وما أذكاها أنه استوهب مرسله (الله ـ جل جلاله ـ) ـ بأدب ـ أن يمنّ عليه بعقل راجح، وأقدام ثابتة، وصبر واصطبار، وهذا دأب كل الرسل، وتمنى على ربّه أن ييسر أمره، ويشدّ أزره؛ كما رَجَا أن يمنح الحكمة وفصل

الخطاب؛ أو يمنح رعاية ربانية خاصة، ولسانا صادقا، وخلقا عظيما، وذكرا مرفوعا؛ وهو شأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحب أعظم آية إعجاز.

ومن هنا كانت بصيرته أكبر، وكان علمه أرسخ، ويقينه أثبت، وكانت قناعته أشدّ، وسريرته أنقى، وكان عمله أرفع، وقوله أعلى، وكانت طباعه أرق، وكان صبره أجمل، وعزيمته أقوى، وكان تصوره أجود، وفهمه أصوب، لمعرفة الحقيقة والاعتراف بها، ليقف على نفائس خطاباته ودقائقها، وبها مباشرة إلى العبادة الحقّة على أتمّ وجه.

لقد جسد رسول الله الكمال الإنساني المطلق، في شقيه المادي والمعنوي، بامتلاكه هذه الخصائص النوعية واتصافه بها، على أساس أنّ الإنسان الكامل «هو من احتاز على أجناس الكمالات الإنسانية من حسية ومعنوية، فضلا على الكمال الروحاني، وهو الاتصال والاتحاد بالعقل الفعّال»،[46] ومن ثمة فليس غريبا أن يكون الرسول حامل أمانة ومبلغيها، حيث سلّم الله عزّ وجلّ، بمشيئته وعلمه، خطابه الكامل الوافي إلى مخاطَب أكمل وأوفى، يتمثل الخطاب، وإن لم يكن إلا ناقلا له، يتّبع ما يوحى إليه منه، وبالتالي يتمثل هذا النوع من المخاطَبين فن التواصل الجيد قولا وعملا، لإقامة حجة الله، حتى يصير في التبليغ عنه بالمنزلة التي يكون ـ جل جلاله ـ بها لو خاطب سائر خلقه.[47] لهذا اتّصف الرسول بالحكيم والأمين العالم، فكانت «الحكمة فضيلة القوة العقلية، وكمالها بالعلم، ويندرج تحتها حسن التدبير، وثقافة الرأي، وصواب الظن. ثم الشجاعة فضيلة القوة العقلية، وكمالها الورع، ويندرج تحتها الوَقْيُ،* والحياء، والخجل، والسماحة، والصبر، والسخاء، والانبساط، والقناعة. ثم العدالة عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب، وكمالها بالإنصاف، ويندرج تحتها جميع الفضائل التي ينقام بها وجود العالم كله، وحاصل هذه الكمالات كلها يرجع إلى كمال العلم والقدرة، أعني العلم بفضل هذه الأخلاق، والقدرة على استعمالها، فالكامل إذاً هو الذي يحيط علماً بهذه الأخلاق ويستعملها».[48] ممّا يعني أنّ جمالية التواصل تجلت أكثر في هذين الطرفين اللذين «لا ينتميان إلى نفس المرتبة الوجودية».[49]

إنّ خطابه صلى الله عليه وسلم بوصفه أثرا، ما هو إلا ضرب من الصناعة الكلامية الربانية لواقع أو لمجموع الأحداث الخفية والظاهرة، والآمرة والناهية، والمضحكة والمبكية، والمؤنسة والمقلقة، والماضية والحاضرة، والمنسوجة سلفا؛ أي أنّه أثر يُخضع ولا يَخضع، حيث إنّه يتميز بقوى عجيبة، ومزيّة عظيمة على اختزان طاقة دينامية، هي لبّ الجمال الخالص في بعده الوظيفي، وقد تجلّت هذه الطاقة في أريحيته التي تمثل المنطلق والمنتهى؛ إذ تهيمن أو تعلن سطوتها على كل ركن

من أركان الخطاب، وعلى كلّ جزئية فيه، فكانت كما عصا موسى، ضربت صميم القلوب، وجوهر العقول، وأغوار النفوس، فشقّتها، وملأتها روحا جميلة حتى ترى آيات ربها وتقبل عليها.

أريحيته تظل خارقة، رغم تقادمه وإبقائه على أصله، وكذلك - رغم - مجيء نصوص بشرية استفادت منه كما استفادت من القرآن، وحاولت أن تضيف أوتجدّد. والأريحية هنا ترتكز على عنصري: الإقناع والتأثير؛ فأمّا الإقناع فيتجلى في إعمال الفكر ويتكئ أساسا على العقل ويتوجّه إليه مباشرة، وأمّا التأثير فيركز على الانفعال في إثارة المشاعر، ويتّجه مباشرة نحو القلب، ونضيف أنّ الإقناع لا يتم بمعزل عن الانفعال والعكس؛ إذ كلما حضر عنصر ظهر الآخر، ومدّ الخطاب أريحية مثيرة، وجمالية ساحرة، فهما متلازمان بحكم أنّ القلوب تعقل. ولئن كانت الأريحية مرتبطة بالخطاب، ومتمظهرة فيه من خلال عنصري الإقناع والانفعال، فإنّها مرتبطة في الآن معا بالمخاطَب، الذي يلّح على الجديد المثير، لما له من مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة، أويلّح على الكلام المتين والقول الرصين، أو الكلام الذي يروق ماؤه، ويسلس مأخذه، وتروع بهجته ورواؤه، أوما يكون قريب المتناول، أو يختار بعيده غامضه، كما يفضله لصدق معناه، ولدلالته على الحقيقة، وروعة مبناه وإشارته إلى بديع صنعة صانعه.[50] كما أن أفكاره كلها جادة جديدة، وقوية دقيقة، وسهلة ممتنعة، تسابق المصاقع اللسن على اقتناصها، كيف لا؟ وهو الذي كان ينوع في لفظه وتراكيبه بمعان محددة، تنم عن متمعن مكين، يطيل النظر ليؤصل إلى مبادئ خبرها، فيجمع المتقارب منها ليطلقها صافية تسري في الشرايين في تسلسل متساوق، وإيجاز محكم صادر عن رجل فطر على معرفة مواطن التأثير والإقناع.

الهوامش:

34- التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 27.

35 - ينظر الملاخ : مفاهيم في التواصل، تاريخ النشر2005/02/02 http://www.aljamaa.com/ar/index.asp ص 1.

36- التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص 213.

37 – أرمينكو (فرانسواز): المقاربة التداولية، تر/ سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع ـ الدار البيضاء ـ المغرب ط 1، 1987 ،ص 80.

38- حميد سمير: النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري ـ دراسة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 2005، ص 17.

39-André Martinet : La linguistique synchronique – presses universitaire de France -1974 p 9.

40 - إدريس بلمليح: القراءة التفاعلية ـ دراسات لنصوص شعرية حديثة ـ ص 56.

41 - عدنان علي رضا النحوي: الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام ـ دار النحوي ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية ط 1، 1999، ص 73.

42 - ينظر كتب التفاسير فأغلبها أشارت إلى ذلك في تفسيرها للآية السادسة والعشرين من سورة آل عمران.

43- ينظر قويدر شنان: التداولية في الفكر الأنجلو سكسوني ـ المنشأ الفلسفي والمآل اللساني ـ مجلة اللغة والأدب ـ قسم اللغة العربية و آدابها ـ جامعة الجزائر، العدد 17، ص 31.

44- ينظر نخبة من العلماء والباحثين: قاموس القرآن الكريم، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ـ الكويت ـ الطبعة الأولى 1992، ص 157.

45 - محمد جابر فياض: الأمثال في الحديث النبوي الشريف، مكتبة المؤيد ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط 1 ـ 1993، ص 26 .

46 - سعد الدين الكليب: البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ـ 1997، ص 286.

47- للاستزادة ينظر الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج 16 ص 193.

*- الإصلاح والستر عن الأذى.

48- ابن الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد): مشارق أنوار القلوب ومفتاح أسرار الغيوب، دار صادر بيروت 1959، ص 46.

49 - نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص ـ دراسة في علوم القرآن، ص 33.

50 - للاستزادة ينظر الباقلاني: إعجاز القرآن، تحق/ السيد أحمد صقر، دار المعارف ـ القاهرة ـ ط5، 1977 ص 113.